

جَد المذخَع ومعنى الحياة

الميتروبوليت أوغسطينوس كانتيو تيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

"وَكَانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ بِهِ مَرَضٌ مُنْذُ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً."

السؤال المطروح أيها الأبناء هو ما هي الحياة؟ أي متعة؟ أي تسلية؟ أي رقص ومرح؟ هل هي "فلنأكل ونشرب لأننا نموت غداً"؟ الكثير من الناس يفكرون بهذه الطريقة، وخاصة شباب عصرنا، الذين تجرفهم الأفكار المادية والإلحادية ويعتقدون أن السنوات القليلة التي سيعيشونها على هذا الكوكب يجب أن يعيشوها بسعادة وبأكبر قدر ممكن من المتعة. إن العبارة الإيطالية دولتشي فيتا والتي تعني "الحياة الحلوة"، هي لديهم بمثابة شعار. بالنسبة لهم، الحياة الحلوة تعني العيش ليلاً ونهاراً في مراكز التسلية المختلفة والرقص بعنف وغناء الأغاني الفاحشة والانخراط في السلوك الصاخب وتعاطي المخدرات لتحقيق جئة كيميائية من المتعة لبضع ساعات. بمجرد مرور تلك الساعات يقع هؤلاء البؤساء في حالة رهيبة من الإحباط والكآبة.

أما بالنسبة للذين يتفحصون الأشياء بشكل أعمق ويفكرون فلسفياً، فإن للحياة معنى أكبر. حياة الفضيلة والالتزام ليست طريقاً ممهداً سلساً مع مناظر طبيعية وشجيرات وأزهار يستمتع بها سائقو السيارات العابرة؛ إنها تشبه الطريق الضيق والتلال، حيث يواجه سائقو السيارات العديد من العقبات والمآسي والمحن. كما يلاحظ أيوب، فإن حياة الإنسان هي تجربة. وما هي التجربة؟ إنها حياة مليئة بالإغراءات والأحزان والضيق. كما يخرج الذهب من أعماق الأرض نجسًا ويُلقى في أتون النار حيث تُحرق كل العناصر التي لا قيمة لها ويصبح الذهب نقيًا، بنفس الطريقة يجب أن يعبر الإنسان عبر أتون الضيق والإغراء الناري حتى يتطهر من عيوبه وردائله وأهوائه.

ومع ذلك، كان هناك وقت لم يكن فيه الإنسان بحاجة إلى التطهر. كان طاهرًا ونظيفًا. متى؟ عندما عاش بالقرب من الله في الفردوس. ولكن عندما أخطأ الإنسان، لوثت الخطيئة عالم روحه، وأصبح مليئًا بالشورور والعيوب، كالذهب النجس الذي يحتاج إلى التطهير والتنقية. منذ ذلك الحين، بعد سقوط الإنسان الأول، بدأت الآلام والأحزان والتجارب. الأرض التي كانت نقية وعطرة برائحة الزهور الجميلة، صارت بريّة وبدأت تخرج الأشواك. لاقتلاع الأشواك وجعل الأرض منتجة، كان على الإنسان أن يُدْمِي يديه. صارت الحيوانات المرؤضة بريّة وتحولت إلى وحوش يخيف زئيرها الإنسان. امتلأت الأنهار وفاضت، مما تسبب بفيضانات وكوارث. بدأت الأرض تهتز بفعل الزلازل المخيفة. الإنسان أيضًا، الذي كان في يوم من الأيام سليمًا وخالدًا، أصيب بالمرض والألم والموت بسبب الخطيئة.

ثم جاءت الآلام إلى الإنسان من تقلبات عناصر الطبيعة ومن الزلازل والفيضانات. جاءت الآلام من المرض والموت كما جاءت من الإنسان نفسه. كانت هذه الأعظم. أصعب الآلام احتمالاً هي تلك التي تأتي من الأصدقاء والأقارب الذين بسبب الشر الذي بداخلهم يسكبون البلاء كالسم. بسبب هذا الشر المتأتي من الإخوة، عانى الإنسان من ويلات كثيرة وعظيمة: الظلم والسرقعة وإهانة شرف العائلة والفسق والزنا والأكاذيب والاعتياب والافتراء والجراح والقتل والجرائم والحروب المرعبة التي تحوّل الأرض محنة لا نهاية لها، كل هذه تشكل منجماً عظيماً من البلاء للإنسان.

أيما ذهب الإنسان يواجه آلاماً، أحياناً من عناصر الطبيعة، وأحياناً من شر وحقد إخوانه، وأحياناً من نفسه. تأتي بعض الآلام من الشيطان الذي يحاول إبادة الإنسان. أخيراً، تأتي بعض الآلام من الله كلي القدرة والخير والحكيم بهدف تطهير البشرية الخاطئة.

يسافر الإنسان في محيط من الأحزان. هذا أكده المسيح بقوله "في العالم سيكون لكم ضيق. ولكن تقوا فقد غلبت العالم" (يوحنا ١٦: ٣٣). لم يكن، ولا يوجد، ولن يكون هناك إنسان معفى من مواجهة البلاء. إذا وُجدت جزيرة غير محاطة بالماء يوجد رجل لن تؤلمه الأحزان.

المشكلة هي كيف يواجه الإنسان البلاء؟ كثيرون من الناس يمجدون الله عندما يكونون أصحاب ومحافظهم ممتلئة وأولادهم ناجحين وحياتهم تسير كما يخططون. ولكن عندما يقطع الضيق الطمأنينة يفقدون رباطة جأشهم ويلعنون يوم ولادتهم. يصبح البعض يائساً لدرجة أنه ينهي حياته بالانتحار.

أيها الرجل المُبتلى في هذه الدنيا! عليك أن تتسلح بالصبر لتتغلب على الأسي. لاقتناء الصبر عليك أن تفتح الكتاب المقدس وأن تقرأ ما يقوله عن الضيق والغاية التي يخدمها؛ اقرأ عن تلك الأمثلة الرائعة عن الصبر. في الكتاب المقدس أمثلة كثيرة عن الصبر. أحد الأمثلة على ذلك هو هذا المخلّع في قراءة إنجيل هذا الأحد. إنه بطل أعظم من المنتصرين في ساحات القتال وحائزي أوسمة الشجاعة.

لنتأمل قليلاً في حياة هذا البطل. لقد عاش في محيط من الآلام. ليس أياماً ولا أسابيع ولا بضع سنوات وحسب، بل كان مريضاً طوال ثمانية وثلاثين عاماً، وهو مشلول تماماً. ومع ذلك لم يئخ ولم يجدف ولم يشتم يوم ولادته. بصبر يذكر بصبر أيوب، قضى أيام بلائه مؤمناً بأن الله لم يتركه، بل سيظهر له رحمته في يوم من الأيام. وقد أظهر الله رحمته. جاء بنفسه، يسوع المسيح الإله الحقيقي، وشفى المخلّع. كل الذين رأوا اندهشوا من هذه المعجزة. في ذلك اليوم، المخلّع بطل الصبر، نال من المسيح الضابط الكل جائزة الصبر.

عسى أن يُكافأ كل منا على الصبر، رجالاً ونساءً وكل من يعاني من الآلام بيننا. ولكي نتحمّل، فلنفكّر في أبطال الصبر أمثال المخلّع وخاصةً ملك الألم والحزن ربنا يسوع المسيح، الذي قال: "في العالم سيكون لديك ضيق؛ ولكن افرحوا قد غلبت العالم."

* عظة في أحد المخلّع حول يوحنا ١٥:٥-١٥

Source: "Drops From the Living Water: Orthodox Homilies On the Sunday Gospel Readings" by Augoustinos N. Kantiotis; Transl. & Fwd by Rev. Dr. Asterios Gerostergios. Institute for Byzantine and Modern Greek Studies, 1992. pp. 60-64.